

## علم الجمال

لطالما تتردد لفظة ( جميل ) في حياتنا اليومية ، دالة في ذلك على القدر الذي يبثه فينا ذلك الشيء من الجمال ، ويجذبنا نحوه ؛ لامتلاكه سر من أسرار الجمال ، كأن يكون لونه ، أو تناسق شكله ، وكون الجمال صفة نسبية ، فإنه راجع لذوق الشخص ذاته ، وإذا كان من الأمر اليسير بأن نصف شيئاً أو سلوكاً بالجمال ، فمن الصعب علينا أن نضع له تعريفاً جامعاً مانعاً ؛ لأن الآراء حوله متراكمة ، والمواقف متعددة ، والمذاهب والنظريات مختلفة ، تبعاً لاختلاف مشارب ومنابع أفكار أصحابها ، وإن كادت أن تتفق بأن الجمال هو إحساس ، وذوق ، وشعور رائع .

يرجع أصل هذه الكلمة ( الجمال ) إلى اليونانية **aresthesis** : الإحساس ، وهو مذهب فلسفي يهتم بمسألة الجميل : علم موضوعه إصدار حكم قيمي يطبق على التمييز بين ما هو جميل وما هو قبيح .

وتعزيزاً للأصل اللغوي ، يقصد بمفهوم الجمال : الجمال مصدر الجميل ، والفعل جُمِلَ ، وقوله عز وجل : (( وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ )) ، أي بهاء وحسن ، وقال ابن سيده: الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق . وقال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني .

وأما الجمال اصطلاحاً فهو وحدة العلاقات الشكلية بين الأشياء التي تدركها حواسنا .

ويعرف علم الجمال بأنه : العلم الذي يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ، ونظرياته ، مثلما يبحث في الذوق الفني ، وفي الأحاسيس والمشاعر التي يشعر فيها الإنسان عند رؤية الأشياء المتناسقة الجميلة . كما أنه يبحث في الفن عامة ، وفي تجربة إبداعه ، وتذوقه ، وأحكام الناس عليه ، ووعيهم به .

فموضوع علم الجمال بمعناه الأوسع يتحدد بالبحث بمختلف الكفايات الجمالية التي يطمح الإنسان إليها عبر حضارته المتعاقبة ، وتعميق معرفتها بالإنسان نفسه ، وما يتغير من

حاجاته الجمالية والذوقية عبر التاريخ الطويل ، كما يتناول هذا العلم النظريات الفلسفية حول الأدب والموسيقى والرسم والنحت والفنون عمومًا .

إذن علم الجمال هو علم دراسة المقاييس والقيم التي تبحث عن الجميل الذي يعبر عن نفس الإنسان سواء ما تعلق بتموجاته الجمالية ، أو ما تعلق بأعماله الفنية .

وكما هو حال التاريخ لمعظم مناهج البحث العلمي ردّ الدارسون بذور علم الجمال إلى العصر اليوناني ، ورأوا أن افلاطون الذي عاش في القرن الرابع الهجري قبل الميلاد هو أول من فكر في الجمال ، وذلك حين عدّ الجمال المتمثل بالموجودات المحسوسة في الأعمال الفنية ، محاكاة لعالم المثل الذي يشتمل في رأيه على كل جمال حسي وخلقى وعقلي .

حيث إن افلاطون يؤسس نظريته الجمالية على اتجاه اخلاقي مثالي يجمع فيها بين الجمال والخير ، راسمًا في اعتقاده إن الخير هو أول وأسمى جمال رافضًا الشعر ؛ لأنه في نظره خان الحقيقة ، معللاً ذلك بسببين : أولهما اخلاقي ؛ لأنه لا يساعد على نشر الفضيلة ، وثانيهما ميتافيزيقي ؛ لأنه يستند إلى باطل وكل منهما لا يؤدي إلى المثل الأعلى الذي ينشده المواطنون في الجمهورية .

وقد عدّ افلاطون الموسيقى من الفنون التي تحاكي المثل العليا ؛ بسبب ابتعادها عن الواقع المحسوس ، وأن الموسيقى لها تأثير في النفس فهي تكسب الناس اتزانًا من أجل تحقيق الخير والجمال ، بحيث اعتبر الموسيقى أكثر الفنون التي تحاكي عالم المثل وتحقق الجمال ، مستبعدًا أنواع الفنون التي رآها مفسدة لأخلاق الشباب واحتفظ ببعض أنواعها وخاصة الموسيقى التي تميزت بإثارة مشاعر الحماس والقوة عند الشباب ، فافلاطون يميز بين الفنون ويربط الفن بجانب اخلاقي مثالي ، فقد اشترط على الفن أن يحقق الشعور بالرضا ليس للجميع ولكن للفضلاء الذين تحصلوا على قدر عالي من التهذيب ، فافلاطون يحصر الفن في دائرة الفضلاء ذوي الفكر الصافي كالفلاسفة والعلماء ، وعليه ترتبط نظرة افلاطون للفن بوجود عالم المثل الذي يتميز بحقيقة الجمال المطلق ، وما الفنون إلا محاكاة لما هو في هذا العالم بواسطة العقل .

ويرى افلاطون أن الجمال : ظاهرة موضوعية ، لها وجودها ، سواء يشعر بها الإنسان أم لم يشعر ، فهو مجموعة خصائص إذا توفرت في الجميل عدّ جميلاً ، وإذا امتنعت عن الشيء يحسب مدى اشتراكه في مثال الجمال الخالد .

فمن هنا نرى أن افلاطون يربط عالم الواقع بعالم المثل ، حيث يخضع الفن للمثالية ، ويبعده عن العقل ، وهنا نقطة اختلافه عن تلميذه أرسطو الذي جعل العقل مقياساً للجمال ، ويجعل الجمال مبدئاً منظماً في الفن .

إن افلاطون هو أول فيلسوف يهتم بتسجيل موقف من ظاهرة الجمال ، فأقام للجمال مثلاً ، وهو الجمال بالذات ذلك الذي يحتد به الصانع في خلقه لموجودات العالم المحسوس ، فالجمال عنده مجرد تقليد لعالم المثل ليخلق عالم المحسوسات . إنه لا يعادل الجمال الذي يمثل الحق والخير ، وإنه في هذا المنطلق ، فقد تصور أنه لا يمكن للفنون أن ترتقي إلى مستوى الطبيعة التي تضم كل كمال وخير وجمال ؛ لأن الطبيعة التي يحاول الفن محاكاتها لهذا الأصل . والجمال عنده يتجسد في الفن الذي هو إلهام ينبعث من ربّات الفنون التي تمثل إشارات رمزية وأسطورية في محاوراته في حين يظل الجمال في الذات مصدر إلهام على المستوى الفلسفي فيصبح مصدر الفن في النهاية هو المثال المعقول للجمال .

أما موقف تلميذه أرسطو من الجمال فهو موقف واقعي ، فقد اتفق على أن الفن يحاكي الطبيعة إلا أن افلاطون رأى أن هذه المحاكاة لا تغني عن الحقيقة ، في حين اعتقد أرسطو أن الفن إذا كان محاكاة فإنه أعظم من الحقيقة ؛ لأنه يتم ما تعجز الطبيعة عن اتمامه ، بفضل عبقرية الفنان وأفكاره ، وبهذا استطاع أرسطو أن يوجه الفكر الجمالي توجيهاً جديداً مختلفاً عما ذهب إليه افلاطون ، فالمحاكاة عند أرسطو ليست محاكاة سلبية بل يجب أن يشوبها التطور والبناء الجيد المبتكر ، وهذه أحد مهمات الفن ، وهناك فرق جوهرى أيضاً ، وهو أن الفن عند افلاطون يصدر عن إلهام إذ عد افلاطون الفنان مجرد وسيط إلى الآلهة التي تمنحه الإبداع ، بينما الفن عند ارسطو نتاج العواطف الإنسانية ، فالعملية الإبداعية عند أرسطو عملية انسانية مرنة ، يكون قائدها الفنان نفسه ؛ لأن الفنان

عنده حادقة ، واعى ، ومفكر ، يكشف عن مكامن الجمال في عالم الحس ، فهو يتم ويتجاوز النقص الموجود في الطبيعة بفضل عبقريته وأفكاره ، فأرسطو يعطي فرصة للفنان حتى يبدع ، فالجمال عنده لا يكون في المحتوى ولكنه في طريقة العلاج ، فذلك الاتقان والانسجام في العمل الفني يعكس مهارة الفنان ، وبالتالي الجمال لا يرجع في أصله للتقليد بل للموهبة والذوق الجمالي .

كما يعرف أرسطو الجمال بأنه : (( التناسق التكويني ، وأن العالم يبتدى في أحلى مظهره ، فهو لا يُعنى برؤية الناس كما هم في الواقع ، بل كما يجب أن يكونوا عليه )) ، فالجمال عنده هو السمو بالواقع وتطوير مظهره .

وفي حين اشترط افلاطون بأن يكون الفن الجيد محاكاة للجمال المثالي ، رأى أرسطو أن الفن لا يعرف بأنه محاكاة للجمال بقدر ما يكون محاكاة جميلة لأي موضوع حتى لو كان مؤلماً رديئاً ، ولذا فإن أرسطو قد عمم فكرة المحاكاة على كل أنواع الخلق الفني ، ولم يشترط ضرورة أن تكون الموضوعات المحاكات موضوعات عظيمة أو جميلة ؛ لأن محاكاة بعض الأشياء القبيحة قد تكون محاكاة جميلة .

ولهذا تكون المحاكاة عند أرسطو تطويرية للشيء أو موضوع المحاكاة ، لذا محاكاة الطبيعة عند أرسطو تطوير الطبيعة وإبراز جمالها ، وبناء جديد يفعل قيمة المحاكاة ، وهذه أهم نقطة خلاف مع الفلسفة الفلاطونية .

أما الجمال في الدراسات الحديثة فقد أخذ دلالة كبيرة من حيث أنه قد شكل أهمية كبيرة لدى الدارسين والمفكرين ، إذ يرى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط أن الجمال شكل من أشكال الغائية في شيء ما يقدر ما يجري تصوره فيه بمعزل عن عرض غاية ، فكانط يجعل من الجمال حكم مشترك ، فهو تأمل عقلي بعيد عن المنفعة الحسية ، إذ يجعل من الحكم الجمالي حكماً تأملياً ، ينتج لذة أو ألماً وفقاً للحكم الغائي ، الذي يتحقق في ذاتنا جميعاً .

إن مفهوم الجمال في مذهب كانط هو ما يتعلق بتحقيق ضرب من السعادة التي تأتي من التوافق والانسجام في مخيلتنا وعقلنا ، إن هذا التوافق ما يكفي لتعريف الجمال ، وعليه

فإن كان شرط على الشعور بالجمال وجود ملكة بشرية هي الوجدان التي تتحكم في الآراء الجمالية للإنسان من خلال توافق بين مخيلته وعقله هو الجمال الذي لا يحقق من وراءه غاية أو منفعة .

أما كروتشه فالجمال عنده هو التكوين العقلي لصورة ذهنية ، أو سلسلة من الصور تتمثل في جوهر الشيء المدرك ؛ لأن الجمال يتعلق بالصور الباطنية أكثر مما يتعلق بالخارج ، إنه يتجسد للحركة الباطنية .

كروتشه يرى في الروح الوجود الحقيقي الوحيد ، أما الوجود الطبيعي الخارجي فهو تركيبة من تأليف العقل . علم الجمال عند كروتشه هو المجال الذي يدرس تجلي الروح في جميع مظاهره ، ذلك التجلي الذي تعبر فيه الروح عن نفسها في أمثلة جزئية مجسمة ، وإذن فعلم الجمال يشمل بالدراسة كل أنواع التعبير فيما عدا التفكير المنطقي ، وأما عن النشاط الروحي للإنسان فإنه يتمثل عبر العلم الذي هو معرفة بشرية عامة ، وهذه المعرفة قد يكون حصل عليها الإنسان عن طريق الحدس ، أو عن طريق الخيال والذهن وهي تشمل معرفة الفردي والكلي والأشياء والعلاقات ، وهذه المعرفة هي مولدة للصور أو مولدة للمفاهيم ، وثانياً فإن النشاط الروحي يتمثل أيضاً من خلال العمل الذي ينقسم إلى نشاطين : الأول اقتصادي ويهدف لغايات فردية ، والثاني أخلاقي يهدف إلى غايات كلية ، والنشاط الروحي مراتب ، المرتبة الأولى هي الجمال ، وفي هذه المرتبة يتجلى ويظهر الروح المطلق ويتجسد في الفرد ، أما المرتبة الثانية هي المنطقية ، والثالثة هي المنفعة ( الاقتصاد ) ، والمرتبة الرابعة فهي الخير وتشمل الأخلاق .

وكروتشه يرى أنه من الخطأ الاعتقاد من أن الجمال يوجد في الطبيعة ، ولكن الطبيعة من حيث هي كتلة من الرخام المنحوت يمكنها أن تبعث وتثبت في ذاكرتنا صور جمالية ، فالطبيعة في نظره بكما ما لم ينطقها الإنسان ؛ لأن كون الصورة الذهنية تعبيراً ناجحاً ليس شيئاً آخر غير كونها عملاً فنياً ، فالتعبير والجمال فكرة واحدة نعبر عنها بلفظين مختلفين .

وقد فضل كروتشه الفن على العلم ؛ لأنه يرى أن الفنون هي التي تقدم لنا الجمال ، والفن عنده عرض مجسم للشعور في صورة ذهنية ، وهو أحد أوجه نشاط الروح .

لقد قدّمت الدراسات الفلسفية المعاصرة روى وأفكاراً حول الجمال من ناحية المفهوم والدلالة والوظيفة .